الطريق إلى ممباسا

خالد العنقودي

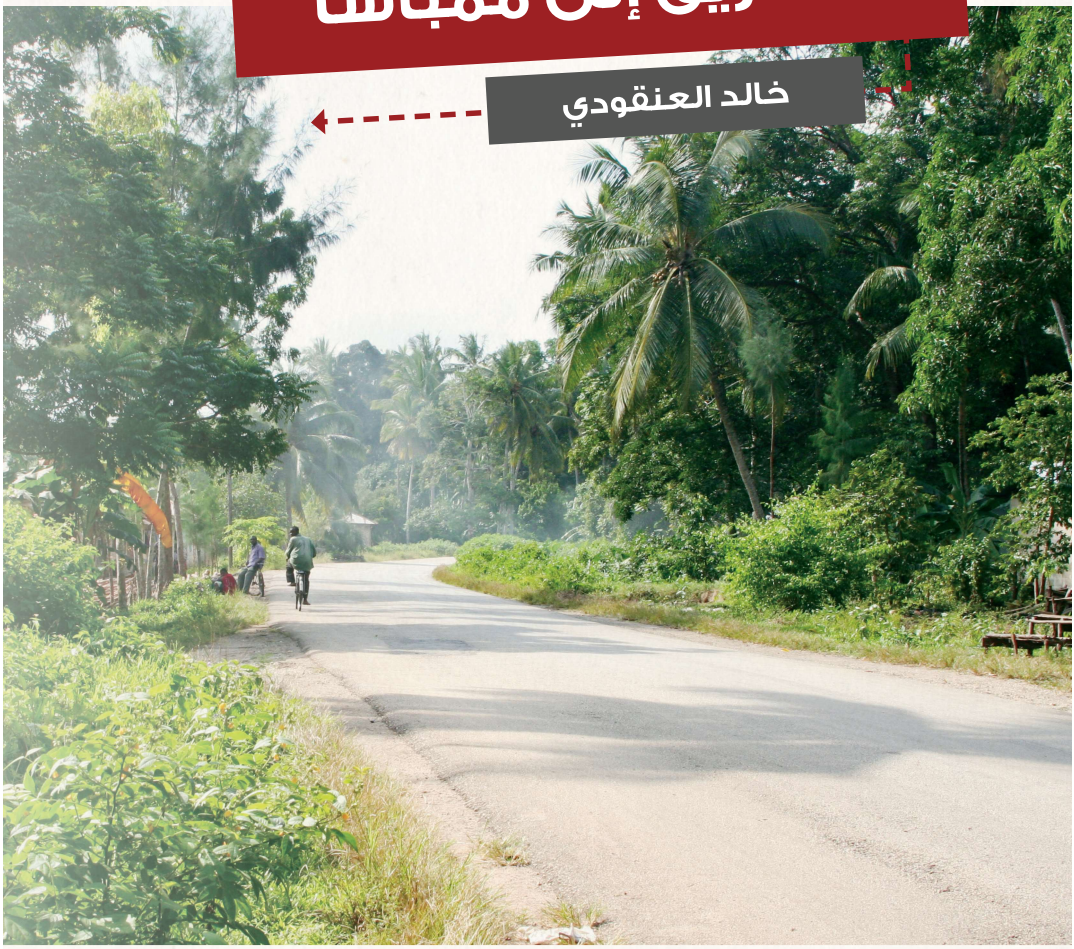

Altakween_2022_59v MZ.indd 80 1/8/23 9:09 AM

في الحدود كان حظي البائس أن أكون من بين الموقوفين والمحجوزين مؤقتا عند الحدود الكينية الأوغندية، وذلك بعدما طلب مني أن أنتظر في غرفة ريثما يتحققون من هويتي ومن صحة الأوراق التي بحوزتي، وليقيني التام بأن جميع أوراقي الثبوتية كاملة.

كانت تجول في داخلي خواطر غريبة، حيث لم يسبق لي أن تم إيقافي قبل ذلك إلا في الحدود الفرنسية الإيطالية وذلك بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

وبعد نصف ساعة من الانتظار فتح باب الغرفة، وإذا بامرأة سمراء البشرة طويلة القامة، تمتاز ببنية ضعيفة، فيما نظراتها يشوبها الشك تجاهي، فاستولى الذهول عليّ، موجها السؤال إليها عن سبب إيقافي، لكنها لم تجبني، بل استمرت في الحديث مع مرافقها.

كان في هذه الغرفة الكثير من البؤوساء مثلي من مختلف الأطياف والأعمار بعدما تم حجزهم لأسباب مختلفة.

عندها أدخلوني على حضرة المفتش وسلمني استمارة دخول (FORM) هذه الورقة بها اسم السائح ولقبه ومكان إقامته، إضافة إلى كثير من الأسئلة، منها ما ليس له أهمية مثل: كم زوجة لديك؟ وما هي مقدار ثروتك؟ وما آخر الأمراض التي ألمّت بك؟ إلى غيرها من الأسئلة التي لا أتذكرها لكثرتها.

Altakween_2022_59v MZ.indd 81 1/8/23 9:09 AM

كما أنه بعد برهة من الوقت وبعد تعبئتي الاستمارة وتيقنهم من صحة الأوراق التي أحملها، والذي على أثره لم يجدوا ما يتهمونني به، ارتأوا أنه لا يوجد أي عائق يحول دون مغادرتي، فأذن لي المفتشون بالمغادرة مُنهيا إجراءاتي لدخول (كينيا)، لكن بعد ماذا؟؟؟

بعد أن غادرت الحافلة! حيث اقتضى عليّ الأمر البحث من جديد عن حافلة أخرى توصلني إلى الأراضي الكينية.

عندها قضيت ليلتي في الحدود الكينية، وفي صباح اليوم التالي كنت على متن أول حافلة متجهة صوب العاصمة الكينية (نيروبي)، مواصلا رحلتي البرية ونحن نخترق كثيرا من المساحات، مارين على مساحات شاسعة من البراري الأفريقية، تارة نسير ببطء، وتارة نتوقف متى طلب الركاب من سائق الحافلة لأي غرض كان.

في الطريق مررنا على مناطق آسرة يكسوها الاخضرار، حيث طبيعة الأراضي في هذا الجانب عبارة عن سهول منبسطة، لكنها باللون الأخضر وقد ازدانت تلك المسطحات بالجمال الأخّاذ، دون رؤيتنا تلك الأشجار السامقة التي اعتدنا على أن نراها في كثير من البلدان ونحن نخترق الطريق برا مع بقية الركاب.

كانت أعين الركاب تلاحقني، الغريب الذي اختار مشقة هذا الطريق بعدما اختار أن يكون بمعيتهم، حيث كثير من الأسئلة تدور في عقولهم من قبيل:

ما الذي دفع هذا الشاب كي يسلك هذا الطريق رغم توفر وسائل أخرى من وسائل النقل الأخرى؟

استمر السير على هذا النهج، ثمة بيوت توزعت بالقرب من مسار الطريق ونحن نرقبها من نوافذ الحافلة، وإذا ما قرر سائق الحافلة أن يتوقف فإنه عادة ما يكون ذلك بالقرب من الطريق الذي نسير عليه، ومن خلال هذه التوقفات رأينا تهافت الصبية علينا نحن الركاب، عارضين ما خفّت به أياديهم وهم يترجون أن نبتاع شيئا من معروضاتهم.

أكملنا بعدها السير إلى أن بلغنا هدفنا، وهو الوصول إلى (ممباسا) مبرقا لأحدهم بوصولي في محطة الحافلات، حيث لم تمر نصف ساعة حتى وصلت إحدى المركبات مقتربة مني، وسألني صاحبها:

هل أنت خالد؟

فأومأت له: نعم هو، حيث سرعان ما نزل من مركبته معرفا نفسه، وهو يحمل حقائبي من يدي.

كان ذلك (سالم) وهو رجل ملتحٍ، تبدو عليه علامات الوقار، تعلوه زبيبة على جبينه من أثر السجود، وقد رحب بي أيما ترحيب، مارين بعدها على كثير من المناطق إلى أن توقفنا عند أحد المساجد لأداء صلاة العصر.

في الطريق بدا لي الرجل أكثر تواضعا بعدما أخذ يسهب لي عن مولده وكيفية وصوله إلى ممباسا إلى أن أشار لي

Altakween_2022_59v MZ.indd 82 1/8/23 9:09 AM

بأصبعه إلى كثير من الحقول ونحن نرمق هذه المشاهد من نوافذ المركبة، حيث امتدادها يصل إلى مئات الهكتارات، والتي تم استثمارها من قِبل بعض المستثمرين الأجانب مقابل إيجاد فرص عمل لأهل البلاد.

كان مقر إقامتي وسط بستان زراعي تفوح منه روائح عبق هذه الأشجار، كما أنه وما إن أشرقت شمس صباح اليوم التالي حتى هممت بفتح النافذة من على شرفة غرفتي، حيث تخالطت عليّ الأصوات وقد ملأت السماء يتسيّدها صفير البلابل.

والمعلوم أن ممباسا قد أسسها العرب في القرن التاسع الميلادي، وتعد ثاني أكبر مدينة في كينيا بعد (نيروبي)، وهي مدينة سياحية بسبب شواطئها وجوها الحار لوقوعها على خط الاستواء.

كما أنه وخلال وجودي في ممباسا رأيت التنوع الثقافي من خلال وجود العرب والهنود والصينيين المهاجرين، ففي ممباسا كثيرا ما كنت أبرق لـ (سالم) بعدما وضع مركبة في تصرفي، فيما المركبة التي يقودها هو من نوع (بيكاب)، قاصدين بعدها قلعة (يسوع)، وهي القلعة التي حاصر فيها العُمانيون البرتغاليين لمدة تصل إلى (36) شهرا بعدما أرسل أهل ممباسا استغاثة إلى الإمام سيف بن سلطان اليعربي من بطش البرتغاليين، ليرسل لهم بعدها أسطولا مكونا من (7) سفن.

كما أنه بعدما بسط العُمانيون نفوذهم قاموا برفع سور القلعة لإعطائها مزيدا من الحصانة والحماية، وذلك بعد تحرير القلعة في 13 ديسمبر 1698م في عهد الإمام سيف بن سلطان اليعربي (1692 - 1711) الملقب بقيد الأرض.

وقد تم إدراج القلعة ضمن تراث منظمة اليونسكو للتراث العالمي في عام (2011) وهي التي بنيت من قبل البرتغاليين بين عامي (1595) و(1596) م وذلك لحماية ميناء ممباسا.

Altakween_2022_59v MZ.indd 83 1/8/23 9:09 AM